الدولة الزيانية ودورها في تفعيل النشاط الحرفي بالمغرب الأوسط

أة. نصيرة عزرودي
جامعة قسنطينة

تمهيد:

إنّ اشتهار بلاد المغرب الأوسط بالمواد المعدنية والزراعية والحيوانية أدى إلى ظهور شرائح كبيرة من الصنّاع ظهرت بأسمائها كالدباغ والسراج والصباغ والنجار والقطان والطحان والدرّاع واللجّام والصوّاف والحدّاد وغيرهم، وبأصنافها كالمعلم والصانع والمتجول.

وعليه هل شكّل الحرفيون طبقة عمالية متجانسة بالرغم من اختلاف مصالحهم من حرفة إلى أخرى؟، وهل وجد وعي عمالي مشترك بين كل الحرف، وحتى داخل كل واحدة، لأنه من الأكيد أن المصالح لم تكن متطابقة بين صاحب رأس المال وهو عادة المعلم والصانع الأجير.

وهل تدخُّل السلطة الزيانية في الاستعانة بالخبرة الخارجية دليل على نقص اليد العاملة المهنية المتخصصة في تلمسان؟، أم أنّ الدعم دليل على حرص الدولة على تنمية المهارات المهنية بغية تحقيق الازدهار والتطور المنشود؟.

عرفت الدولة الزيانية كغيرها من دول المغرب الإسلامي تنظيما في أنشطتها الاقتصادية منها النشاط الحرفي الذي مارسته كل جماعة في مكان محدد لها يعرف باسم الحرفة التي تمارسها، وعلى كل حرفة أمين يعتبر صلة بين الحرفيين(حساني، م، 2007: 2/ 85)، ونظرا لأن هؤلاء الحرفيين كانوا تجارا أيضا، فإن الأسواق بالمغرب الأوسط قد عرفت عدة طوائف منهم كالعطارين والقبابين والخراطين والإسكافيين والسراجين والنجارين

والحدادين والدرازين والصبّاغين والوراقين والدباغين وغيرها من الحرف المنتشرة في الأزقة والدروب.(بلعربي، خ، ع6: 33).

في حين كانت الحرف التي تتسبّب في تلوث محيط المدينة وإزعاج الناس تمارس خارج أسوار المدن ومثلها في ذلك الحرف التي تحتاج إلى الماء بكثرة كدباغة الجلود والحدادة، والتي تقام في شكل جماعات صغيرة تعد بمثابة الشركات التي تتكون من أجراء يشرف عليهم رب العمل، فضلا عن الأرحية التي تستعمل لطحن الحبوب وغيرها فكانت في الغالب تقام على ضفاف الأنهار والمنحدرات أو بإزاء البوادي أين تتواجد المياه بكثرة.(مزدور، س،2010: 62).

1- وضعية الصنّاع والحرفيين

اهتمّت السلطة الزيانية بالصنّاع، ففي عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني(760– 791هـ/ 1358– 1388م) أمر بتشييد دار الصنعة سنة 767هـ/ 1366م «... تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم، فمن درّاق ورمّاح ودرّاع ولجّام ووشّاء وسرّاج وخبّاء ونجّار وحدّاد وصائغ، ودبّاج، وغير ذلك، فتستكّ لأصواتهم وآلاتهم الأسماع، وتحار في إحكام صنائعهم الأذهان، وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار، ثم تعرض قومتُهم أصيلان كل يوم مصنوعاتهم بين يدي الخليفة أيّده الله، ويُخزنُ كل بحجار، صنفة الُمعدّ له، ويُنصف الجاعلون من أرزاقهم عدلا هكذا أبدا.» (ابن خلدون، ي، 1980: 2/ 155)

ووجود مثل هذه الدار يكفل تنظيما أفضل للمدينة بدلا من انتشار الصنائع في أماكن مختلفة من المدينة.

وللحديث عن أوضاع هذه الفئة نجدها تختلف من بلد لآخر، ففي تلمسان يصف الوزان حياة الحرفيين الكبار والصناع بها قائلا: «والصنّاع

أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التمتع بالحياة.(الوزان، ح، 1983: 2/ 21).ويضيف مارمول:«والصناع أناس بسطاء لطفاء يعتزّون بأنهم يعملون بأدب ويصنعون أشياء متقنة.»(كاربخال، م، 1989: 2/ 300).

ولم يمنع وجود دار الصنعة السالفة الذكر من انتقال نشاط الحرفيين خارجها، فمع مرور الوقت انتشرت بعض الصناعات، وفي ذلك ينقل لنا الوزان أنّ جميع الصنائع والتجارات موزعة على مختلف ساحات المدينة.(الوزان، ح، 1983: 2/ 19)، استطاعت ندرومة هي الأخرى أن تفرض تفوقها نتيجة كثرة الصنّاع فيها، قامت صناعتهم أساسا على أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في ناحيتها.(الوزان، ح، 1983: 2/ 14)

وكمثال عن الوضعية المريحة للصنّاع نجد أنّ المستوى المعيشي لأرباب العمل المشرفين على بعض الحرف كان راقيا جدا نتيجة للأرباح التي يحقّقونها من وراء ترويج منتجاتهم الحرفية، فقد كان أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن النجار يزاول نشاطه في حياكة الصوف الرفيع الذي اختصّت به تلمسان في درب شاكر، وكان أكثر هذا الدرب له ولعماله وخدامه، قصده التجار من كل بلاد، واقتنى ملوك إفريقية والمغرب من هذه الأثواب الصوفية الرفيعة.(ابن مرزوق، م، 2008: 188 ـ 189)

ونظرا للمكانة التي بلغها بعض كبار الحرفيين فإنّ منهم من وصل إلى رتبة معلم، وهي أعلى درجة بالنسبة للحرفيين.(ابن مريم، م،1986: 38 ـ حساني،م، 2008: 2/ 90)، وتقتضي هذه الصفة من صاحبها الإلمام بأسرار المهنة، وهو أمر يخول للمعلّم امتلاك مصنع إذا توفرت له وسائل الإنتاج.(حسن، م، 1999: 1/ 461)

لكن في مقابل ذلك كان بعض الحرفيين الصغار في وضعية لا يحسدون عليها، كحال أبي العباس القطان الذي كان في شبابه يمتهن حرفة

الخياطة، فشكا إلى ابن مرزوق الجد سوء حاله وضيق معيشته، فأشار عليه بالزواج، إلا أن ابن القطان أجابه قائلا :«أنا أشكو عن إقامة حالي فكيف بالزوجة، ولي والدة كبيرة لا أستطيع القيام بمؤونتها، فكيف بغيرها»، لكن ابن مرزوق الجد أصرّ على انكاحه من إحدى قريباته، فدفع له صداقها وأعطاه مالا، وأصبح ابن القطان بذلك يخرج مسافرا للتجارة إلى فاس وسبتة وبجاية حتى تيسرت حاله واستقر بتلمسان.(ابن مرزوق، م، 2008: 161- 162)، وهذا المثال يوضح لا محالة أن هناك بونا كبيرا بين الحال التي يعيشها بعض الحرفيين خصوصا الأجراء منهم، وحال التجار الذين يجنون من أسفارهم التجارية الأموال الطائلة.(مزدور، س،2010: 63)

ومدينة مازونة هي الأخرى طال الفقر بعض مشتغليها من أصحاب الحرف خاصة النسّاجين منهم ـ على الرغم من قيمة العائد المادي المتحصل عليه من هذه الحرفة ـ « حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النسّاجين يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية، ومع هؤلاء عدد من العمال لا يربحون ما يساوي المقادير التي يجبرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض...»(الوزان، ح، 1983: 2/ 36). الحال نفسه يؤكده مارمول كاربخال:«...وهم إمّا نسّاجون أو فلاّحون وجميعهم تقريبا فقراء، لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالأتاوات...».(كاربخال، م، 1989: 2/ 359)

كما لقي بعض الأجراء المشتغلين في الأفران ظروفا مادية صعبة، فمنهم من لم يقبض أجرته لمدة خمس عشرة عاما، نظرا للحالة المادية المتعسرة لصاحب الفرن.(الونشريسي، أحمد بن يحي، 1981م: 8/ 290).

2- الحضور الحرفي بالحواضر الزيانية

يعدّ قطاع الغزل والنسيج الممول الأساسي للنشاط الاقتصادي في العصر الوسيط، إذ تعدّ هذه الصناعة إلى جانب الغذاء من أهم الصناعات المقومة لحياة الناس والمجتمعات، حتى أن البعض نعتها بحضارة النسيج(حسن، م، 1999: 1/ 473)، وتعتمد هذه الأخيرة على الإنتاج الزراعي والحيواني كمواد أولية، وهي المتوفرة بأقاليم بلاد المغرب الأوسط كالصوف والحرير والقطن والكتان، ممّا أدى إلى إنتاج الصوف بكثرة خاصة في الهضاب العليا التي تعدّ من أكثر الأماكن في المغرب إنتاجا لها، والذي يمتاز بجودته العالية ونعومته الكبيرة.(صدقي، ك، 2006 ـ 2007: 36).

ومن المدن التي اشتهرت بهذه الحرفة خلال العهد الزياني إقليم بني راشد (الوزان، ح، 1983: 2/ 27 ـ 28) ومازونة (الوزان، ح، 1983: 2/ 36) ومليانة (الوزان، ح، 1983: 2/ 35) ومستغانم (كاربخال، م، 1989: 2/ 350)، ومدينة وهران التي كان معظم سكانها من الحاكة (الوزان، ح، 1983: 2/ 30)، كما كانت تصنع بهنين أقمشة جميلة وأنسجة من القطن(كاربخال، م، 1989: 2/ 296)، وضاهتها تنس في صناعة المنسوجات القطنية والصوفية.(كاربخال، م، 1989: 2/ 359).

ومن المهم القول أن هذه الحرفة استقطبت اهتمام الأسرة الزيانية، من ذلك ما ذكره ابن مريم في شأن ابن زكري الذي أخذته أمه في صباه ليتعلم عند معلم الخياطة والنسيج، فبقي عنده حتى تعلم الحرفة، في مقابل الحصول على أجرة من دار الطراز قدّرت بدينار في الشهر.(ابن مريم، م،1986: 38- 39)

ولم تكن هذه الحرفة حكرا على الرجال، بل كان للمرأة نصيب في مزاولة حرف في بوادي المغرب الأوسط، وخصوصا حرفة النسيج وصناعة الحنابل والأكسية وغزل الصوف، ففي الدرر المكنونة نجد فتاوي عن المرأة

تشتري الصوف وتتصرف فيه بالغسل والمشط والغزل والنسيج(المازوني، ي، مخ: 1/ 267ظ)، كما اشتهرت نساء إقليم فجيج بنسج أغطية موحهة للأسرة تمتاز بكونها دقيقة ورفيعة الصنع، حتى كان يظن أنها من الحرير، وكانت تباع بأثمان غالية في فاس وتلمسان ومدن أخرى لجودتها العالية.(الوزان، ح، 1983: 2/ 132)

وعليه أصبح النسّاجون ذوي شأن نتيجة تطور صناعة النسيج، فارتفعت مكانتهم في المجتمع، حتى أصبحت صناعتهم من الصناعات الرفيعة المخصّصة لأعيان الناس، (حسن، م، 1999: 1/ 478)، وذلك بشهادة أحد التجار المازونيين الذي جنى أموالا طائلة نظير بيعه الحرير والحنابل في سوق القيسارية ببجاية(المازوني، ي، مخ: 2/ ورقة157و ـ الونشريسي، أ، 1981: 5/ 107 ـ 108)، قدّر أحد الباحثين قيمتها المالية بـ34,66 دينارا. (بعيزق، ص، 1999: 439).

ونظرا لهذه الأرباح الكبيرة استقطبت تجارة النسيج اهتمام كبار التجار الذين كانوا يقومون بكراء المناسج للصنّاع على عمل معلوم وأجرة معلومة، وفي هذا الصدد يقول المازوني:« سئل القاضي أبو عبد الله سراج عن أهل صناعة الحياكة، وذلك أنهم يكترون المناسج بأجرة معلومة من غير أجل أو يمنعون من ذلك، فقال: " لا يجوز إلا إذا قال الكراء لأجل معلوم وأجرة معلومة، ينبغي أن يعطوا أجرة لأجل معلوم كالشهر أو نحوه، أو جمعة أو نحوها، ومع ذلك يقول الصانع إن عملت ملحفة واحدة في ذلك الأجل تعطيني خمسة دراهم وإن عملت اثنتين تعطيني عشرة.». ولكنه إذا جاء بالمناسج يقول له ما عملت فيه إلا واحدة أخذ خمسة دراهم، وإن قال اثنتين أخذ منه عشرة هل يجوز؟»، وفي نص آخر يقول: «جوابكم في مسألة ثانية أن أهل الصناعة المذكورة كانوا إذا جاءهم صاحب شغل اتفقوا معه

علـى أجـرة معلومـة فـإذا تم شـغل آخـر بقـدر مـا نقـص مـن غزلـه في خدمـة الشـغل.»(المـازوني، ي، مـخ: 2/ ورقـة 97و- حسـاني، م، 2007: 2/ 83 -84)

وفي الشأن نفسه قام بعض التجار بشراء الخيوط الصوفية المغزولة ثم قدموها للحرفيين لحياكة البرانس وغيرها من الملابس، ثم بعد ذلك باعوهـا في دكـاكينهم ومخازنهم وسافروا بها ضمن القوافل التجارية التي كانت تنطلق من تلمسـان نحـو الجهات المختلفة، وربما تحدث بعض المشاجرات بين البائع والمشتري بسـبب قيمـة السلعة ورغبة الحرفي في زيادة أتعابه، وفي ذلك يقـول يحـي المـازوني:« سـئل أبـو الفضل العقباني عمن دفع برنوسا لصانع يحيكه ودفع إليـه أجرتـه، ثـم أتـى ربّ البرنوس للصانع فقال له: أرني برنوسي لبيعه، وقال له الصانع، أخذ فيه معاملة، فقال له ربّ البرنوس: لا تأخذ فيه معاملة ولا أبيعه إلا بالذهب، وصـار الصـانع يعده بذلك، وربه يتردد إلى الصانع إلا أن قال له يوما أنه قد ضاع ولكـني أغرمـه لك وأعطيه ثمنه، فأعطاه بعض الثمن ثم قال له سق لي ما عنـدك مـن الـبرانيس وأخليها لك من الثمن الذي لك عندي فأعطاه برانيس ليحيكها من ذلك فمسك بهما الصانع وطلب منه الأجرة على الحياكة.»(المازوني، ي، مخ: 2/ ورقة 50و- حساني، م، 2007: 2/ 91)

من خلال هذه النازلة نستشف أنه في بعـض الحـالات يقـع سـوء تفـاهم بـين الحرفيين وصاحب الشغل حيـث يـدّعي الحـرفي بـأن الـبرانيس قـد ضـاعت منـه ويرفض التعويض لصاحبها.(حساني، م، 2007: 2/ 91).

وإن كانت صناعة النسيج بمختلـف أصـنافها ـ أقمشـة الكتـان والقطـن والحرير- هي الغالبة على بلاد المغرب الأوسط، إلاّ أنّ ذلك لا يعني انعدام حرف ومهن أخرى قد تكون أقل كثافة من سابقتها كحرفة دباغة الجلـود.(

المازوني، ي: ورقة رقم 267ظ)، وحرفة الصباغة، التي اشتهرت بها مدينة العباد(الوزان،ح، 1983: 2/ 24)، وتدلس. (كاربخال، م، 1989: 2/ 372).

كما نلحظ أيضا وجود بعض المهن الوضيعة والشاقة كمهنة البغالة والتي كانت لا تستقطب شرائح المجتمع الزياني لتفاهة الأجر الذي يتقاضاه صاحبها، فرغم ما تقدمه السلطة لهم من دعم فإنهم «سواء ربحوا كثيرا أو قليلا جدا وسواء استأجرتهم أنا أو استأجرهم غيري، فإنهم يسرقون دائما» على حدّ تعبير الوزان. (الوزان،ح، 1983: 2/ 27)

3- السلطة الزيانية وجهودها في تفعيل النشاط الحرفي والمهني

لّما كانت الحرف والمهن من أهم مصادر دخل الدولة الزيانية من جهة، وكانت تساهم في إضفاء الطابع العمراني المتميز خاصة للحاضرة العريقة تلمسان من جهة أخرى، كثّفت السلطة الزيانية جهودها لتفعيل النشاط الحرفي بها، عن طريق الاستفادة من خبرة الأندلسيين خاصة بعد أن أعطيت لهم ضمانات من قبل السلطان يغمراسن بن زيان(633- 681 هـ/ 1235- 1282م) الذي أصدر في حقّهم ظهيرا يخص الجالية الأندلسية القادمة من شرق الأندلس، ونص الظهير على الآتي: «هذا ظهيرُ عنايةٍ مديدةَ الظَّلال، وكرامَةٍ رحيبةَ المجال، وحِمايةٍ لا يُخشىَ على عِقدهَا الُمبرمِ، وعهدها المُحكمِ من الانحلالِ والاختيال، أمر به فلانٌ ـ أيَّد الله أمرهُ، وأمدَ عصرهُ ـ لجميعِ أهلِ الأندلسِ المستوطنينَ بحضرةِ تلمسانَ ـ حرسهَا اللهُ ـ أحلَّهمْ بهِ من رعيهِ الجميلِ كِنافًا، وبوَّأهمْ منْ اهتمامهِ الكريمِ، وإنعامهِ العمِيمِ جنات ألفافاً، ووطَّأ لهمْ جنابَ احترامهِ تأنيسًا لقلوبهمْ المنحاشةِ إلى جانبهِ العليِّ واستيلافًا، وأشاد بما فيهمْ من المقاصدِ الكرامِ، وأضفىَ عليهم من جُنَنِ حِمايتهِ ما يدفعُ عنهم طوارقَ الاضطهادِ والاِهتضامِ حين اختبرَ خدمَتَهُم، فشكرَ ما تولَّوا فيهَا من الجد والاجتهادِ، واطَّلعَ على أغراضهمْ

السَّديدةِ في اختيار حضْرتهِ السعيدةِ للسُّكنَى على سائر البلادِ، فلحظَ لهمْ النيَّةِ واعتبرَها، وأظهر لهم هذه النية واعتبرهَا، وأظهر عليهم مزايَا ما لهمْ من هذه المناحِي الحميدةِ، وأثرَهَا، وأذنَ أيَّدهُ الله لهمْ ولمن شاءَ من أهلِ تلمسانَ البلديّينَ في كذاَ.»(ابن خطاب، م، 2004- 2005: 73).

ولتحقيق الازدهار العمراني للحاضرة تلمسان استمر خلفه من بعده على نفس الدرب، إذ استدعى السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول(707 -718هـ / 1307-1318) الحرفيين الأندلسيين في إطار التعاون الفني والاقتصادي والعسكري ما بين غرناطة وتلمسان، فبعث إليهما السلطان أبو الوليد بن الأحمر (713 ـ 725 هـ/ 1313- 1325 م) بالمهرة والحذّاق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيى الناس بعدهم أن يأتوا بمثله.(ابن خلدون، ع، 2001: 7/ 190)

ولعل ولع هذا السلطان الزيّاني بالبناء والتعمير جعله لا يكتفي بالخبرة الأندلسية بل أعانه الأسرى النصارى النجارون والزلاجون والزواقون.(ابن خلدون، ي، 1980: 1/ 134- التنسي، م، 1985: 142)، «فبنى البلاد وشيّد القصبات والأسواق والمساجد وزيّن البلاد، وكانت مملكته عظيمة حتى كان يفتخر على ملوك العرب بالمال والخزاين والحرث وزينة الثياب، وكنوز الذهب والفضة والذخاير من الجوهر النفيس واللؤلؤ والزمرد والقدرة الواسعة بالمال والعبيد والوصفان من ولد حام وبالخيل والكمال من ركوب السروج المذهبة يفتخر على ساير الملوك من ملوك المغرب بالعدة والشدة والقوة».(ابن الصباح، ع، 2008: 92-93)

وفي نفس الصدد بادر السلطان أبو تاشفين(718- 737هـ/ 1318-1337م) إلى مخاطبة الملك خايمي الثاني ملك أرغون في رسالة عبّر فيها عن

حاجته للصنّاع الكطلانيين، ورفضه تسريح الأسرى منهم لحاجته إلى معارفهم الصناعية، وذلك في سنة 722هـ/ 1322م قائلا:« وأمّا ما أشرتم إليه من تسريح جميع من عندنا من الأسارى فذلك ما لا يمكن أن يكون، كما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح من عندكم من أسارى المسلمين، لأن كذا تعلمون أن ما عمّر بلادنا إلا الأسارى وأكثرهم صنّاع متفنّنون في أنواع جميع الصنائع، ولو طلبتم ما يستغني عنه الحال في تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم، وقضينا أربكم، وأمّا تسريح الجميع فصعب لأن ذلك يُخلي المواضع، ويعطّل ما يحتاج إليه من أنواع الصنائع...»(عزاوي، أ، 2007: 2/ 302- 303)

ليتجدّد إلحاح الملك خايمي الثاني سنة 723هـ/ 1323م على السلطان الزياني ليبعث له بالأسرى، لذا قرّر السلطان الزياني أن يقدّم له حوالي أربعة وعشرين نصراني، بل سيزيده ثلاثين منهم، ولكن من دون أن يعيّن له الملك الآراغوني أي أحد منهم. (عزاوي، أ، 2007: 2/ 306)

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عدم قدرة تلمسان عن الاستغناء عن الأسرى النصارى الحاذقين كل الصنائع والحرف التي يحتاجها إعمار تلمسان وتنميتها، فأكثرهم صنّاع ماهرون متخصّصون في جميع أنواع الحرف، فإخلاؤهم يعني تعطيل ما يحتاج إليه من أنواع الصنائع، لدرجة أنّ السلطان الزياني لا يمكنه حتى مقايضتهم بأسرى مسلمين، فما عمّر بلاده إلا الأسرى، ليقترح هذا الأخير تسريح ثلاثين أسيرا من غير أن يقترحهم عليه ملك أراغون، وهذا ترضية له.(سعيدان، ع، 2002: 93- 94)

ومع استمرار تدفق الهجرات الأندلسية إلى بلاد المغرب الأوسط، وخاصة تلمسان التي تقاطرت إليها أعداد وفيرة منهم، امتهنوا مختلف المهن والصناعات، كالبناء والعمارة، وصناعة الجلود، وفن الخطوط، والتعليم

ونجارة الخشب، ومختلف الصناعات المفيدة من طرز نسيج الحرير، وخياطة القطن والكتان، وغزل الصوف، وقاموا بتطوير صناعة الفخار والخزف، وأنواع عديدة من السلاح، وسائر الأواني والأدوات المنزلية المعروفة آنذاك، وفي هذا يقول ابن الأعرج:«...وأظهروا هناك من صنائعهم ومتاجرهم ما عاد بالنفع على البلاد وأهلها.»(ابن الأعرج، م، مخ: ورقة 96)

وبالفعل أحدثت الهجرة الأندلسية تميزا في شتى الصناعات خاصة منها النسيجية والخزفية، وهو ما يؤكده لنا أيضا ابن الأعرج قائلا:« وكان عهد الأندلسيين بها (تلمسان) مزدانة بالمصانع المفيدة فما شئت من أطرزة، ومنسوجات الحرير والقطن والكتان والصوف، ومعامل الفخار والخزف، وأنواع السلاح وسائر الأواني المنزلية.»(ابن الأعرج، م، مخ: ورقة96- 97) .

كما طوّر الحضور الأندلسي بتلمسان حرفة السك النقدي، خاصة بعد استشراء ظاهرة الغش في العملة بتلمسان لعوامل كثيرة منها غياب رقابة السلطة الزيانية وانتشار المجاعات والأوبئة وتعاطي اليهود لحرفة السك(عزرودي، ن،2011:251)، ولعلاج هذا الخلل الاقتصادي بادر الجهاز الزيّاني الحاكم إلى استدعاء أسرة بنو الملاح ذات الأصول القرطبية العريقة والتي اشتهرت بأمانتها وتحليها بالثقة، فعندما حلّوا بتلمسان احترفوها في بلاط السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن(639 - 703 هـ / 1241 - 1304 م).(ابن خلدون، ي، 1980: 1/ 212 – 213ــ ابن خلدون،ع، 2001: 7 / 140 – 141)، بل هناك من يذهب في طرحه إلى أنهم كانوا أصحاب الفضل الأول في نشأة العملة الزيانية رغم أن الدنانير والدراهم الموحدية ظلت متداولة في تلمسان خلال السنوات الأولى لنشأة الدولة الزيانية، كما كان الشأن في تونس وفاس، ثم أصدر الزيانيون عملة خاصة بهم كانت غاية في الجودة والإتقان ودقة الموازين. (خليفي، ر، 2008: 183)

أمّا التأثيرات الأندلسية على حرفة الزراعة، فلعل قدوم أعداد وافرة من الأندلسيين إلى تلمسان الزيانية، جعلتهم محطّ أنظار السلطة القائمة، لذا عملت هذه الأخيرة على الاستعانة بخدماتهم والاستفادة من خبراتهم المتعددة في فلاحة الأرض والبستنة، لاسيما في وادي الوريط الواقع شرق تلمسان، فشيّدوا قرى وبساتين، وأسّسوا مصانع عديدة ومتاجر كثيرة، وغرسوا الحقول والمزارع المختلفة الثمار، فجلبت للبلاد وأهله الخير والنعمة، «...وملؤوا تلك الشعاب بالبساتين المتنوعة الثمار، وأنواع الرياحين والأزهار، واستوقف النظار، وحيّر أولي الأبصار، واتّصلت مساكنهم بذلك الوادي إلى نهر الصفصيف وأقاموا بها عمارة بقيت آثارهم بتلك الشعاب العميقة ذات الأدراج المؤنقة، والمياه المتدفقة، واغراسها للأجنّة الثمار المتنوعة.»(ابن الأعرج، م، مخ: ورقة96)

وكان لهذا التدفق الأندلسي أثره على أهالي بلاد المغرب الأوسط، وخاصة تلمسان إذ«...قلّدهم الناس في فلاحتهم، واعتنائهم بغرس الزيتون، وسائر الفواكه، حتى صارت البلاد وأهلها في حالة زاهية وعيشة راضية.»(ابن الأعرج، م، مخ: ورقة96)

ويمكننا القول جازمين، أنّ اهتمام السلطة الزيانية ببعض الصناعات يعود بالدرجة الأولى إلى عائدها المالي الذي تحقّقه، فقد كانت البرانس والأقمشة تُصدر إلى المغرب الأقصى والبرتغال وإيطاليا، إلى جانب الزرابي والحياك أي الحنابل والأكسية بكميات قليلة، وإلى بلاد السودان بكميات كبيرة. (بشاري، ل، 1986- 1987: 137)

ولهذا لعبت الجالية الأندلسية دورا في تطوير بعض الصناعات الجلدية لتصديرها، كالأحذية التي كانت تباع في الأسواق التابعة للدولة الزيانية، حيث كان التجار يشترونها من الورشات الخاصة بصناعاتها ثم

يوزّعونها على التجار الصغار بالمدن والأرياف وبعضها كان يصدّر إلى خارج الدولة الزيانية، فكان الإقبال على أحذية بني زيان في السودان الغربي، وبخاصة على البليغة والخفاف والسندالة والسومال.(حساني، م، 2007: 2/ 93 ـ 94)

الخاتمة:

حظيت الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية للدولة الزيانية باهتمام كبير من طرف الباحثين في الآونة الأخيرة، غير أن الجانب الاقتصادي مازال يعاني نقصا واضحا، فالدولة الزيانية ولدت في ظرفية تاريخية أقل ما يقال عنها أنها صعبة، تحتاج معها إلى تعزيز سلطانها بالجيش والاقتصاد، وما النشاط الحرفي إلا جزء لا يتجزأ عن هذا الاقتصاد، لذا نلحظ مدى سعي السلطة الزيانية إلى تطوير هذا الجانب بإمكاناتها المحلية من أيدي عاملة ووفرة للمادة الخامة، خاصة منها الصوف، ولم تتوقف عند هذا الحد، بل استعانت بالخبرة الأجنبية المتخصّصة عموما والأندلسية منها خصوصا، حرصا منها على تحقيق التطور بكل الحواضر الزيانية.

قائمة المصادر والمراجع:

*ابن الأعرج السليماني، أبو عبد الله محمد بن محمد، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 170.

*ابن خطاب المرسي، أبو بكر محمد بن عبد الله، 2004 ـ 2005م، فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر بن خطاب، تح فتيحة أمين، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس: الرباط.

*ابن خلدون، أبو زكريا يحيى ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد، 1980، ج1، ج2،بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية، الجزائر.

* ابن خلدون، عبد الرحمن، 2001، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح خليل شحادة، بيروت: دار الفكر.

*ابن الصباح، عبد الله،2008، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار للحاج عبد الله بن الصباح ، هذّبها وأصلح حللها محمد بنشريفة، ط1، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.

*بعيزيق، صالح ، بجاية في العهد الحفصي، 1999، دراسة اجتماعية واقتصادية، تونس: منشورات كلية الآداب.

*بلعربي، خالد، السنة الثانية، الأسواق في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، مجلة كان التاريخية، العدد السادس، ص32- 38.

*التنسي، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني، 1985، نظم الدر والعقيان، تح وتعليق محمود بوعياد، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

*حساني، مختار، 2007، تاريخ الدولة الزيانية، الأحوال الاقتصادية والثقافية، ط1: دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع.

*حسن، محمد، 1999، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، دط، تونس: جامعة تونس الأولى.

*خليفي، رفيق، 2008، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3 ه إلى نهاية القرن9 ه، رسالة ماجستير من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

*عزاوي، أحمد، 2007، الغرب الإسلامي خلال القرنين 7و8هـ، دراسة وتحليل لرسائله، ج2، دط، الرباط: الرباط نيت المغرب.

*سعيدان، عمر، 2002، علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي، ط1، منشورات سعيدان، سوسة: الجمهورية التونسية.
*عزرودي، نصيرة، الغش في العملة في بلاد المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل المتأخرة، مجلة المواقف، منشورات جامعة معسكر، العدد6، 2011، ص247 ـ 256.
*صادقي، كمال، 2006- 2007، الصناعة الحرفية بالمغرب الأوسط في عهد بني حماد،(398 ـ 547هـ/ 1007–1252م)، رسالة ماجستير بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.
*كاربخال، مارمول، إفريقيا، 1989، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.
*المازوني، أبو زكريا بن أبي عمران يحي بن موسى بن عيسى المغيلي، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخ بالمكتبة الوطنية بالحامة، مج 1، رقم 1335.
*ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب، 2008م، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، ط1، منشورات المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
*ابن مريم، أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني، 1986، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
*مزدور، سمية، 2010م، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط من أواخر القرن السادس الهجري إلى أواخر القرن التاسع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة.
*الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، 1983.ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط3، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
*الونشريسي، أحمد بن يحي، 1981م، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح محمد الحجي وآخرون، بيروت: دار الغرب الإسلامي.